الحركة الإصلاحية بشمال المغرب:
السياق، الخصائص، المصادر، القضايا

الدكتورة حنان اعميمي
المغرب

مقدمة

طرح سؤال الإصلاح من طرف النخب المغربية بالمنطقة الشمالية في لحظة مفصلية من تاريخ المغرب المعاصر، إثر الاصطدام العسكري المغربي الأوربي حيث أزالت كل من معركة إيسلي وتطوان حجابة الهيبة عن المغرب والذي عمر لقرون طويلة، فكان من الضروري طرح سؤال ارتبط بضرورة التأسيس لمشروع إصلاحي يخرج البلاد من حالة الهيمنة الكولونيالة الغربية الساعية إلى السيطرة على مقدرات البلاد والنيل من سيادة الدولة ومن حضورها الحضاري.

لقد كان الوعي الإصلاحي بالمنطقة الشمالية في إطار مشروع أسس له مجموعة من الرود قادوا الفعل الإصلاحي حددت له قضايا الاشتغال ورسمت خصائصه وأهدافه منشودة كان على رأسها تحرير البلاد من قبضة الاستعمار الغربي المزدوج والدفع بعودة بالمغرب إلى مركزه الريادي الدولي.

1-نشأة الحركة الإصلاحية بالمنطقة الشمالية:

- **سياق النشأة:**

نشأت الحركة الإصلاحية بشمال المغرب ضمن حدثين تاريخين عرفهما المغرب وكان لهما وقع كبير على وعي النخبة التقليدية المغربية آنداك:

الحدث الأول:

فرض الحماية الفرنسية على المغرب في 30 مارس 1912 بما يعنيه الحدث من إجهاض وإخفاق لمحاولات الإصلاح الذاتي التي بذلت من طرف الدولة منذ هزيمة إسلي 1844 وتطوان 1860.وبما أكده الحدث مجددا من ضعف وعجز وتأخر المغرب مقارنة بالأخر (فرنسا) المتفوق بقوته العسكرية وبتقنيته ونظامه المتفوق فكريا وعمرانيا. مما سيولد لدى النخبة التقليدية وعيا بالتأخر إزاء الآخر ومن ثمة ضرورة الإصلاح بالاقتباس منه وليس فقط بالرجوع إلى الأصول حيث سيدخل الأخر كبعد أساسي في تصورهم بالرجوع إلى الأصول حيث سيدخل الآخر كبعد أساسي في تصورهم للإصلاح.1

الحدث الثاني:

انهيار ذاك الأمل الذي جسدته المقاومة المسلحة 1912-1921 في البوادي والجبال ضد الحماية التي فشلت في صد العدوان على المغرب.2

هذان الحدثان المؤلمان سيشكلان صدمة وسيكون لهما دور في جعل الخطاب الإصلاحي لهذه الفترة ينحو في اتجاه أكثر مسالمة وقبولا بالحماية كأمر واقع فرضته الضرورة وقوة الآخر وتفوق العسكري، مما استحال معه الاستمرار في تبني الدعوة للجهاد. وهكذا سيتراجع بالتدريج ذلك الخطاب الإصلاحي السلفي الجهادي3مخليا المجال لخطاب إصلاحي سلفي مدني مهادن ستكون فريضة الجهاد لديه غائبة وسيتم السكوت عنها، وبالتالي قبول الآخر والتعايش معه والتعامل مع دولته والتعويل عليها لإنجاز الإصلاح، وسينشغل هذا بما أفرزه التحديث من قضايا على إنها نوازل مطلوب أن يجتهد فيها من منظور الشرعي فهو بهذا المعنى الفقهي سيمارس الاجتهاد ليفتي في مستجدات الحياة المعاصرة وما أدخلته من تقنيات معاصرة. (4)

2- مفهوم الإصلاح وخصائصه في المنطقة الشمالية:

أ- مفهوم الإصلاح:

من دواعي وقوفنا عند مفهوم الإصلاح هو معرفة جوهر ومضمون المشروع الإصلاحي عند الحركة الإصلاحية بالشمال وأهدافه. فلا شك أن تحديد المفهوم سيكشف عن المعالم الكبرى للفكر الإصلاحي لذا النخبة الشمالية الإصلاحية، وعند مدى ارتباطها في علاج وتصحيح الواقع المجتمعي المغربي بمواطن الخلل التي أوقعت المغرب في الواقع الاستعماري. وعليه فلابد من التأكيد أننا سنحاول البحث في مفهوم الإصلاح في زمن سلبت فيه حرية الإنسان المغربي. فمفهوم الإصلاح لدى أمة مستقلة كاملة السيادة ليس هو نفسه لدى امة مستضعفة متحكم في مقدراتها البشرية والاقتصادية.

لا يخفى أن لمفهوم الإصلاح جذورا عميقة في الثقافة العربية الإسلامية، ومن تم في الأدبيات ذات النزعة السلفية، بدليل ورود المصطلح بشكل مسترسل في المصدرين الأساسيين للشريعة الإسلامية: القرآن والسنة. بل يمكن القول بأن الرسالات السماوية لم تكن في جوهرها إلا خطابات إصلاحية بامتياز كما يتبدى من منطوق الآية القرآنية التي وردت على لسان النبي شعيب عليه السلام. والتي لخص فيها مضمون رسالته بالقول: "**إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت**"، سورة هود الآية 88.(5)

ومن الاستعمالات القرآنية المختلفة التي يمكن إحصاؤها للفظ " أصلح "، ما يفيد معنى الصُّلح(6) أما المصلحون فهم في هذا المعنى من يقومون بالعمل الصالح وبإصلاح أحوال الناس، وهكذا " **يضع أنصار الإصلاح عملهم في خط الأنبياء المصلحين...**"، ولكنهم يستندون على وجه التخصيص إلى رسالة النبي محمد.(7)

وهكذا يضرب الإصلاح بجذوره في المنابع الأولى للإسلام وينبغي الانتباه إلى هذه السلطة المرجعية الأصولية التي تؤسس إجرائيته وشرعيته في التداول الفكري الإسلامي المعاصر، فتجعل من الفعل الإصلاحي فعلا متجها إلى تصويب صورة الحاضر على مثال الماضي (الأصل)، بل وشحنه بطابع الديمومة والاستمرار في حياة الجماعة الإسلامية وثقافتها.8

يعني الإصلاح، إذن، تصويب ما اعوج في ممارسة أمور الدين والدنيا عند المسلمين والعودة بها إلى (الأصل) الذي لم يلحقه فساد الزوائد والمحدثات.9

وعليه فإن الإصلاح إذا كان قد تماهى مع جوهر الدعوة الإسلامية منذ انطلاقتها فإنه مع مرور الأجيال والعقود وتبدل أحوال بعض المسلمين وانحرافهم عن تعاليم الإسلام الصحيحة، فإنه نحا لأن يغدو مشروعا للعودة بالدين إلى نقائه الأصلي والمتمثل في ضرورة السلوك وفق أحكام السنة المستمدة هي نفسها من أحكام وتعاليم القرآن وذلك من منطلق ما ورد في بعض الأقوال أو الشعارات السلفية المأثورة من قبيل من لم تصلحه السنة فلا صلاح له " **أو لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها** "10.

وهذا ما عبرت عنه مجلة المغرب الجديد (للمكي الناصري) " **كل إصلاح مذهبي لا يتم تحقيقه أبدا إلا بالعودة إلى الأصول، وهذا في رأي مجلة المنار** 11 **هو مدلول الحديث: إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، وقد تعاقبت التجارب على صدقه في القرن الثالث على يد ابن حنبل، وفي القرن الرابع على يد الأشعري وفي القرن الخامس على يد ابن حزم، وفي القرن السادس على يد الغزالي وفي القرنين السابع والثامن على يد ابن تيمية وابن القيم الجوزية، وفي عصرنا على يد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده** ".12

ويبدو أن العودة إلى الأصول من أجل الإصلاح وكما رآها رواد السلفية بالمشرق قد أثرت في رواد الإصلاح بشمال المغرب. فما هو إذن مفهوم الإصلاح عند إصلاحي المشرق؟

لخص جمال الدين الأفغاني مفهوم الإصلاح كما نقله أحمد أمين فيما يلي:

1- بث الروح في الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه وتنقية عقيدته من الخرافات وأخلاقه مما تراكم عليه واستعادة عزته ومكانته.

2- مناهضة الاحتلال حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة برابط على نحو الأخطار المحدقة بها13.

وعليه فإن الإصلاح عند إصلاحيي الشمال ارتبط كما أكد عبد المجيد بنجلون بتخليص الشعب من تخلفه المفرط، ولقد قصد السلفيون المغاربة بمن فيهم الحاج عبد السلام بنونة النضال ضد الطرق الدينية، التي كانت في نظرهم مذنبة بانحرافات دينية خطيرة التي كان الشعب يتخبط فيها.14 ويضيف عبد المجيد بنجلون: " وابتداء من العشرينيات وإلى غاية سنة 1956 كان المقصود بالإصلاح تحرير البلاد الذي لا يوازيه في الجوهر والأولوية أي إصلاح ".15

لقد ربط رواد الإصلاح في شمال المغرب في هذه الحقبة مفهوم الإصلاح بالتعليم ومحاربة البدع وتحرير البلاد من المستعمر، كما سيتمحور مفهوم الإصلاح في جزء كبير منه يدور حول إصلاح العقيدة، من منطلق أن ما لحق الأمة من تأخر وانحطاط يرجع في جانبه الأساسي إلى ابتعاد المسلمين عن عقيدتهم السليمة، وبهذا تكون مهمة المصلحين ضمن هذا التصور هو حماية العقيدة والدفاع عنها والعودة بها على أصولها الأولى كما كانت عليه عند السلف، وتنقيتها مما شابها من بدع وانحراف ومن ثمة فحدث الاستعمار كما عاشه المغرب هو اعتداء على الإسلام والذات المغربيتين.16

وما نخلص إليه هو أن مفهوم الإصلاح الذي تبناه إصلاحيو الشمال ارتبط بالظروف العامة التي يمر بها المغرب فوضعية اللاستقرار التي هزت كيان الذات المغربية كان لها حظ في مضمونه.

ولا يجب النظر إلى تحديد مفهوم الإصلاح لدى نخبة معينة بالأمر الهين، فالمسألة مرتبطة بنوع من التعقيد الذي يحتاج إلى مجهود في التحليل، على اعتبار أن مقاربة أي مشروع إصلاحي يحتاج كما يقول علي مراد إلى كشف " **طبيعة** " هذا المشروع و "**هوية** " أطرافه الفـــاعلة وذلك عبر الأخذ بعين الاعتبار عددا من المعايير تهم مواقف صاحبه من الوضع السوسيو- ثقافي، والمذاهب السائدة، والبنى السياسية للمجتمع بحيث كلما لمس في مواقف صاحب المشروع نوعا من " **المحافظة** " أو التعلق بـــ " **التقاليد** " و"**الأصول** " اعتبر مشروعه إصلاحيا.17 أما إذ لمس في هذه المواقف نزوعا نحو التنصل من هذه الضوابط ومسايرة الانشغالات المجتمعية المستجدة والاهتمام بقضايا "حقوق الإنسان " و" التمايزات العرقية والدينية والثقافية "، وتصاعد التيارات الشمولية... الخ، آنذاك فقط نعتبر مشروعه تجديدا.18

وهذا يحيلنا إلى طرح سؤال هل الحركة الإصلاحية بشمال المغرب كانت حركة إصلاحية تجديدية؟. ويجعلنا بالضرورة أن نقف عند الأطراف الفاعلية في عملية الإصلاح في الحركة الإصلاحية بشمال المغرب والخصائص التي همت مشروعهم الإصلاحي.

ب –**رواد الاصلاح بشمال المغرب وخصائص المشروع:**

ما يميز الحركة الإصلاحية بشمال المغرب أنها حركة نشأت على يد مجموعة من رجال الحركة الوطنية بالمنطقة، من هم الحاج عبد السلام بنونة وعبد الخالق الطريس ومحمد المكي الناصري ومحمد داود ". فثقافة هؤلاء كانت ثقافة فقهية تقليدية سلفية ولكن مع ذلك لم تمنع هذه الثقافة بعضهم من التكيف مع متطلبات التحديث ومضامينه، حيث حاولوا في آن واحد التمسك بالهوية والتراث وعدم الانغلاق وبالتالي الانفتاح على مستجدات العصر وبذلك فكروا في إشكالية التقليد والحداثة أو الأصالة والمعاصرة على أساس التسوية والتوفيق بينهما. وعموما يمكن إجمال خصائص الإصلاح لدى الحركة الإصلاحية بالشمال فيما يلي:

- **الطابع الشمولي:**

يمكن أن نرصد هذه الخاصية من خلال أدبيات الحركة، حيث يمكن الرجوع في هذا الإطار إلى كتاب " **وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب** " لابن عزوز حكيم والذي يرصد المجالات التي همت رجال الحركة الوطنية بالشمال والتي شملت كل الميادين: التعليم، الاقتصاد، الثقافة، والصحة، حقوق الإنسان، والدين وميادين أخرى.

تسبب الاستعمار الإسباني في زعزعة الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي المغربي، لذلك ركز رواد الإصلاح بالشمال في مشروعهم الإصلاحي على شمولية النضال على جبهتين اثنين:

– الجبهة الداخلية في المرتبة الأولى ممثلة في مواجهة كل مظاهر التخلف المجتمعي.

– والجبهة الخارجية في المرتبة الثانية ممثلة في مواجهة الاستعمار الإسباني.19

وفي هذا الصدد يقول عبد المجيد بنجلون: "... من اللائق أن لا يغيب عن النظر أن كل مبادراته في المجالات الثلاثة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تلتقي جميعا عند نفس الهدف المتمثل في تحرير البلاد، ففي رأيه (أي عبد السلام بنونة) من الواجب النضال بحزم وبكل الوسائل المادية وأساسا الاقتصادية ضد الاستعمار كما من الواجب على المغرب أن يناضل ضد نفسه بالتقدم الاجتماعي وفي جميع المستويات..."20.

- **الطابع الحضاري:**

حرص رود الحركة الاصلاحية لواقع المجتمع المغربي على نهج الطابع السلمي دون الدخول في مواجهة مباشرة مع المستعمر الاسباني مع الاستفادة من مواطن القوة لديه دون الدخول في صدام معه إلا بعد أن توفر شروط المواجه. يقول محمد داود في هذا الصدد:

ضمن افتتاحية العدد الأول لمجلة السلام، التي حملت عنوان " **مبدؤنا وغايتنا**".

" نحن نعتبر إسبانيا وفرنسا في بلادنا كدولتين مرشدتين تمدان إلينا يد المساعدة مؤقتا، وتتبادلان معنا المصالح حتى إذا ما وصل الزمان الذي نصير فيه قادرين على إدارة شؤوننا بأنفسنا، مددنا يدنا مصافحين شاكرين لإخواننا الإسبانيين والفرنساويين على ما قدموه لنا من الخدمات، وما مهدوا لنا من طريق الرقي والتقدم وإذا ذلك يصير وطننا المغربي العزيز حرا مستقلا لا تربطه بغيره من البلاد غير روابط الصداقة والوداد وتبادل المصالح بين الطرفين، مع تمتع كل منهما بجميع حقوقه معاملته الطرف الآخر معاملة الند للند لا معاملة التابع للمتبوع ".21

هذا الطابع الحضاري الذي تبناه رجال الحركة الوطنية سنجد بعض مظاهره عندما يتبنى رجال الحركة الوطنية بالشمال مبدأ المشاركة أو بالأحرى اكتساح مؤسسات المستعمر لإبلاغ رسالة وصوت المغرب الرامية إلى حصول شعبه على الحرية والانعتاق سنجد هذا المبدأ مثلا عند عبد السلام بنونة عندما يلقي محاضرة بدار الشعب بمدريد حول القضية المغربية، وكان أول مغربي يسمح له بالصعود إلى منصتها وكان ذلك فوزا عظيما بالنسبة للحركة الوطنية.22

لا شك أن نفس التصور كان حاضرا عند عبد الخالق الطريس، إذ أنه لم يكن ضد فكرة التعاون مع الإدارة الحامية في حدود تتفق ومصلحة البلاد العليا، وذلك لثلاثة عوامل:

الأول: لأن الإسبانيين لم يكونوا دائما ضد فكرة مشاركة الوطنيين في الحكم كما كان الأمر عند الفرنسيين.

الثاني: لأن عبد الخالق الطريس كان يعرف إذا أخذ بالتي هي أحسن فإنه يحيل إلى التفاهم والإنصاف الشيء الذي لم يوجد عند الفرنسيين.

الثالث: لأن التجربة دلت الطريس أنه من الممكن بل ومن المؤكد أن بالتعاون حصلت الحركة الوطنية بالشمال ما لم تحصل عليه الحركة بالجنوب23خاصة وأن قادة الحركة الوطنية بالشمال لم يكون ضد مشاركتهم في الحكومة.24

ويبدو أن مبدأ المشاركة المتبني من طرف إصلاحي الشمال تم استنباطه من فكر السلفي المشرقي، إذ أن المبدأ نفسه كان متبعا من طرف المصلح جمال الدين الأفغاني الذي قال عنه أحمد أمين " **بل رأيناه يضع خطة إصلاحية بأن يتعاون مع الإنجليز ويصادفهم، ويتفاهم معهم لينال منهم بأقصى ما يستطيع لأعانته فيما ينشد من إصلاح داخلي** ".25

فالحركة بالشمال بوضعها مشروعا إصلاحيا حضاريا يستهدف بالأساس تغيير وتقدم الإنسان المغربي، ستؤكد لرواد المنظومة الكولونيالية الأوربية أن النخبة المغربية قادرة على تسيير وإدارة شؤونها العامة والخاصة.

لقد تجلى الطابع الحضاري للحركة الإصلاحي الشمالية عندما سلكت طريق إصلاح المجتمع محاربة الجهل والأمية، لذاك ستعطى الأولوية لإصلاح التعليم الذي ستكون له بعد هام في برامج إصلاحي الشمال وسيحتل مكانة مركزية في مطالب النخبة المغربية الشمالية وبرامج حركتها، كما أن الذي سيكسب التعليم تلك الصدارة بخطاب تلك النخبة وديناميةنشاطها الوطني هو قدرتها على التواصل بين المغاربة في الشمال والجنوب وبالضرورة قابليته لأن يزاول وظيفة التعبئة من أجل استنهاض الوعي بقيمة الوطن أولوية الانتماء القومي والحضاري.26

- **الطابع التوفيقي.**

أما طابع التوفيقي27 الذي ميز فكر إصلاحي الشمال سنجده في عدد وافر من كتابات النخبة بالمنطقة السلطانية على امتداد عقد الثلاثينيات.28 ففي سياق تحددت توجهات مجلة السلام وأهدافها حيث كتب الفقيه محمد داود يقول:

" مسألة الجديد والقديم أو التجديد والمحافظة من المسائل التي كثر الكلام عنها في المدة الأخيرة...، ونرى من الواجب علينا أن نتدبر أسباب رقي الأمم ذات العظمة المادية والأوروبية في هذا العصر ونبحث عن الوسائل الحقيقية لنهوضها وعظمتها فلنقلدها فيما يمكن التقليد فيه... وأن ندخل في كل ناحية من نواحي حياتنا عناصر النشاط والقوة والفتوة والتجديد حتى تكون في الأمة مناعة قوية ضد عوامل انحلالها واندماجها في غيرها وكل ذلك يمكن لأمتنا أن تقوم به مع المحافظة التامة على جميع مبادئ ديننا الحنيف ودون أن نفرط في شيء من مقوماتنا القومية...".29

يضيف: " نحن نريد بكل صراحة أن نأخذ من أوربا لباب نهضتها ونترك القشور ونريد أن نقلدها فيما يعود بالخير والمنفعة على أمتنا لا فيما لا فائدة فيه، نريد أن نأخذ عنها ونحاربها في العلم والعمل والجد والمثابرة والإقدام وغير ذلك مما نعد من أصول نهضتنا وأسباب سيادتنا..."30.

يحيلنا نص الفقيه محمد داود ليس على النزعة " التوفيقية " فحسب بل على التمسك المفرط بالتراث ومقوماته وفي الوقت ذاته انتقاء ما هو أصلح لنهضة وملائم للمبادئ الدينية، في التراث الغربي والأوربي على وجه خاص، وهي رؤية لم تشد عن أنماط التفكير التي أطرت وعي النخبة الوطنية المغربية وحكمت مواقفها من الظاهرة الاستعمارية وأدوات مقاومتها.31

- **الطابع المؤسساتي:**

بخصوص آلية عمل الحركة الإصلاحية الشمالية فقد اعتمدت العمل في إطار عمل مؤسساتي منظم ومهيكل وقانوني منذ بداياتها الأولى، فقـــد كان عملها مؤسساتي سياسيا وثقـــافيا واجتماعيا واقتصـــاديا أيضا.

فالطابع المؤسساتي في المجال الثقافي كان غنيا، أما في المجال الاقتصادي فإن المنطقة الشمالية كانت لها كامل الجرأة في تدشين مشاريع اقتصادية قوية كان الهدف منها إيجاد اقتصاد اجتماعي يقوم على أساس مشاركة جميع الطبقات.32

- **الطابع التخصصي:**

عمد رود الحركة الإصلاحية بشمال المغرب في تنزيل مشروعهم الإصلاحي إلى تبني مبدأ التخصص في الاشتغال على القضايا الإصلاحية، إذ هيمن هذا المبدأ على اختيارات رواد الحركة الإصلاحية حسب اهتماماتهم وترتيب أولويات الإصلاح لديهم مع ضرورة الإشارة أن كل القضايا المجتمعية كانت من صميم فكرهم الإصلاحي وهكذا:

سيعرف الحاج عبد السلام بنونه بالاهتمام بشكل خاص بالمجال التعليمي، الذي ستشكل أساسا في مسار مواجهة الاستعمار وإصلاح المجتمع، إذ سينطلق الرجل من الحقل التربوي والتعليمي بتأسيس " **المجمع العلمي المغربي**" بتطوان سنة 1916 وبإصلاح مؤسس الحركة بمعية أحمد غيلان مدرسة " **لوقش للتعليم العالي الديني**" سنة 331917 إضافة الى العشرات من المن المعاهد والمدارس الحرة34

كما سيعرف محمد داود باهتمامه بالإعلام والنشر وقد شكلت مجلة السلام التي أصدرها سنة 1933 أول تقليد إعلامي مغربي تولى التوعية بمختلف القضايا المحلية والوطنية والعربية، ليشكل النشر مجال اهتمام آخر لحل معضلة الكتب المدرسية، ويبدو أن خطوة جلب الكتب المدرسية من الشرق كانت مكلفة وشكلت ضغطا على الآباء وأولياء الأمور فكان من الضروري إيجاد منفذ لهذا المشكل، فكان لابد من المطبعة المهدية التي تأسست كشركة مساهمة بتاريخ 21 نونبر 1928 التي أثبت من خلالها محمد داود استباقه للزمن وعزمه الأكيد على ولوج ميدان الصحافة والنشر من أوسع الأبواب35.

أما المكي الناصري رغم اهتمامه بالمجال السياسي والإعلامي أيضا ألان انه جهد الإصلاحي الكبير انصب على الإصلاح الديني عبر شن هجمة شرسة ضد الطرقيين والبدع محاولا إصلاح العقيدة وجسد رؤيته الإصلاحية الدنية في كتابة "إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة"36

وبخصوص عبد الخالق الطريس كان أول مؤسس لحزب سياسي بالمغرب المسمى بحزب الاصلاح الوطني سنة 1936 والذي دشن مسار المواجهة الفعلية مع سلطات الحماية للمطالبة بالحقوق المدنية والسياسية كان أهمها مطلب استقلال المغرب بتاريخ 14 فبراير 1943 بمعية المكي الناصري.

3- مصادر الإصلاح عند إصلاحي الشمال:

تعددت مصادر37 وروافد داخلية وخارجية ساهمت في بلورة الخطاب الإصلاحي بالشمال:

- **إرسال البعثات الطلابية إلى المشرق العربي:**

لقد كانت ظروف الحماية تقف منذ وقت مبكر وراء الوعي الذي ظهر في شمال المغرب بضرورة إيفاد نخبة من طلبة المنطقة خارج البلاد في اتجاه بعض الدول الشقيقة " **وكان الحاج عبد السلام بنونة هو أول من فكر في إرسال بعثات طلابية إلى البلاد العربية غادرت أولها تطوان في شهر أكتوبر سنة 1928** ".38

وقد تم تدشين عهد البعثات إلى الشرق بواسطة الطالبين الطيب بنونة ومحمد بن مصطفى أفيلال اللذين التحقا بمدرسة النجاح بنابلس سنة 1928 على سبيل التجربة فقط. إلا أن التجربة عرفت نجاحا مهما، حتى نجد البعثة الطلابية إلى نابلس قد اتسعت بشكل مهم وأصبحت تضم كل من السادة: الطيب بنونة وعبد السلام بن جلون ومحمد بن عبد السلام الفاسي ومحمد بن محمد الخطيب ومحمد بن عبد السلام الخطيب والمهدي بنونة.39

كما غادرت مدينة تطوان بعثة علمية من التلاميذ للالتحاق بمدينة النجاح في نابلس بفلسطين وقد ذهبت في رفقة الأستاذ الطيب بنونة الذي كان يتابع تخصصه في الهندسة الميكانيكية بجامعة اسطامبول وقد تكونت البعثة من أحمد بن عبود، أحمد مدينة، الطيب بنونة، محمد بن حساين، وإدريس وعبد الكريم بن عبد السلام بنونة.40

وقد تأثر أفراد هذه البعثات بالجو القومي والثوري الذي كان سائدا بالمشرق العربي حينذاك، والذي ترك بصمات واضحة في أدهان كثير من الناس، فتلك الأجواء الثقافية والسياسية السائدة ببلاد الشرق هيأت للطلبة المغاربة الموجودين هناك أفقا أوسع مما كانوا فيه، فكانت هذه البعثات نواة للحركة الفكرية والسياسية والفئة الأولى التي ستأخذ على عاتقها مهمة النهوض بالتربية والتعليم، مكملة بذلك عمل الفئة الثانية في ميدان المطالبة بالإصلاح الاجتماعي والسياسي.41

- **ظهور الصحافة في طنجة:**

لعبت الصحافة بشكل عام دورا أساسيا في نشر الخطاب الإصلاحي وتداوله وتعميمه ونقله سواء من المشرق إلى المغرب أو داخل المغرب نفسه وقد ظهرت المبادرات الصحفية الأولى على يد مشارقة من أفراد الجالية المقيمة في طنجة وكانت أول جريدة عربية صدرت منها " المغرب " سنة 1889.

ومما جاء في افتتاحية عددها الأول: " وإذا كانت هذه البلاد مفتقرة إلى جريدة عربية اللغة والمشرب لنشر الأنباء الحقيقية والحقائق العلمية والاستنباطات المستحدثة الصناعية التي من شأنها ترقية منزلة البلاد، بأن تثير في رؤوس أهلها نار الحمية العربية... لكي يسعوا إلى إصلاح حال بلادهم باذلين النفس والنفيس في درء المفاسد عنها، وجلب المنافع إليها، وكل ما يعود إلى رفع رتبتها عاملين على مكانتهم في مجاراة بقية البلاد أن مضمار النجاح والقوة ومجال العلوم والصناعات ".42

- **تأثير الحركة الإصلاحية السلفية المشرقية على إصلاحيي الشمال:**

كان للفكر الإصلاحي السلفي الممثل آنذاك في مدرسة العروة الوثقى، والمنار مع جمال الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا تأثير على الخطاب الإصلاحي السلفي بالمغرب حيث انتقل تأثيره بواسطة الصحف والكتب المشرقية.

يقول محمد عزمان في هذا الصدد: " كان بيته (أي محمد داود) مفتوحا لعقد الاجتماعات والاطلاع على الصحف والمجلات التي كانت تصله من تونس ومن المشرق العربي...".43

- **تأثير الوهابية:**

نشأت الحركة الوهابية أولا في الحجاز في القرن 18 على يد محمد بن عبد الوهاب الذي كان متأثرا ببعض الأفكار الدينية والإصلاحية لابن حنبل وابن تيمية.

وقد دعت الوهابية إلى محاربة الطرقية وتقـــديس الأولياء والأضرحة وظهر التأثير الوهابي في المغرب منذ القرن 18 مع السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790) الذي كان يقول أنه مالكي مذهبا، حنبلي اعتقادا44، أما بعد الحماية فإن الخطاب الإصلاحي لم يكن ليخلو من تأثير وهابي، خصوصا موقفه من الطرق الصوفية ونظـــرا لأهمية الأمر عند إصلاحي الشمـــال، فإن المكي الناصري سيكتب رسالة في الموضوع سنة 1925 سماها " **إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة** ".45

4- قضايا الخطاب الإصلاحي عند إصلاحي الشمال:

ونعني بها الموضوعات والقضايا التي شغلت بال رواد الإصلاح بشمال المغرب، وسيطرت على مضمون خطابهم (46) الإصلاحي في فترة الحماية، بعد تجربة الاصطدام القاسية مع الاطراف المحتلة:

- **قضية التعليم وإصلاح نظمه ومناهجه:**

حيث ركز كل رواد الحركة الشمالية على خطورته وأهميته في مواجهة الآخر.

وليس من باب المصادفة أن يكون أول فاتحة لعهد الإصلاح بشمال المغرب عبر تأسيس عبد السلام بنونة " **المجمع العلمي والأدبي، بالمغرب في أواخر 1916 ".** وقد بين في نظامها الأساسي هدف المجمع "... **انتشار الحقائق العلمية وتكثير دروس اللغة وغيرها بكل الوسائل الممكنة من مدارس وجرائد ومجلات وإيجاد مكتبة عالية تكون ملجأ لطلاب العلوم** ". (47)

لقد انتبه رواد الحركة الإصلاحية باكرا إلى أهمية إصلاح التعليم (48) فطرحوا مجموعة من التقارير والمشاريع الإصلاحية لهذا القطاع الحيوي ـــ

سينخرط العمل السياسي للحركة الإصلاحية بتطوان وسيتمحور حول المطالبة بالإصلاح الشامل، وهو الميدان الذي وقعت فيه المجابهة بين الإصلاحيين وإدارة الحماية وفي إطاره مسألة التعليم كأولوية، باعتبار أن التعليم هو أساس الإصلاح فكان الموقف الإصلاحي دفاعيا بكل ما يحمله من معنى نفسي واجتماعي وتاريخي وتفسره النظرة إلى التعليم كمفتاح للحركة الإصلاحية يمنحها القوة بشكل تلقائي، فعمل الإصلاحيين في ميدان التعليم كما عبر عن ذلك – عثمان أشقرا- **لم يخضع لمنطق رد الفعل أكثر من الفعل(49).**

- **الدعوة لإحياء السنة والاجتهاد ضمن مشروع الإصلاح الديني:**

وفي هذا الصدد نورد مقتطفا لمقال بعنوان " الحركة السلفية والصفات العامة لوجهتها الحاضرة " الإصلاح ومبدأه. نشر بمجلة المغرب الجديد (50).

" إن حركة الإصلاح السني لا تعارض في أن يغتني المذهب ويزهر، وأن يقتبس من العناصر الأجنبية، أما ما يوحى به الإصلاح من تقليد " الأجداد العظام " فهو تقليد أعمى، لأن أولئك الأجداد أنفسهم عرفوا كيف يكونون مجددين في عصرهم، وذلك بفضل تلك الانتهازية الماهرة التي سلكوها وتهيأت لها الحركة السنية ".

- **الدعوة إلى تأطير الشباب كدعامة لمجابهة الحماية:**

ما أكدت افتتاحية مجلة " **المغرب الجديد** " في عددها الأول أن الشباب هو عماد الأمة وعدتها، وعلى عاتقه ملقاة آمال البلاد، وهو رأسمال ضخم يجب استثماره: "" لقد كان المغرب – في عهده الأخير – مهملا لكثير من القوات الاجتماعية لا يعني بها، ولا يفكر في استثمارها، وعلى رأسها قوة الشباب الكبرى تلك القوة التي تعتبرها الشعوب الراقية أجل القوات وأجدرها بالحب والرعاية، والتشجيع والتقديس والتي تعلق عليها والأمم الناهضة أقوى الآمال في البعث والإحياء والتجديد وعندما أراد الله أن يحيي الأمة المغربية، دفع هذه القوة الكاملة إلى الظهور ورمى بها في ميدان العمل الصالح، وألهم الشباب شعورا بالواجبات، وتقديرا للمسؤوليات فأصبحوا وكأنهم أوصياء هذه الأمة وأطباؤها يحرسون تراثها ويعالجون أمراضها، وأخذوا على أنفسهم عهدا أن يجعلوا الأرض المغربية جنة من جنان الدنيا وأن يرفعوا العقلية المغربية إلى أسمى الدرجات في سماء الفكر العليا ".51

الكلام الافتتاحي لمجلة " **المغرب الجديد** " يؤكده عبد الخالق الطريس عن الذي يعتبر الشباب عماد الأمة " إن قيمة الشباب الحقيقية لم تظهر في العهود القديمة كما ظهرت في العصر الحديث فقد كان الشباب ولا ريب من عناصر القوة وأسباب التطور في مختلف العصور ولكن ليس ذلك بشيء إذا قُورِن بالتأثير العظيم الذي يحدثه الشباب اليوم في مختلف نواحي الحياة. فالاعتماد عليه أصبح عظيما في حماية الأوطان من الفتوح الاستعمارية، وتغيير الأوضاع وبث مختلف الدعايات والقيام بالمغامرات في سبيل التقدم والمساعدة الجديرة بالاعتبار في الكشف والابتكار والاستنباط والسعي لتجميل صور الدنيا وما إلى ذلك...".52

- **الفكر الإصلاحي والحماية:**

اهتم الفكر الإصلاحي الحديث في المغرب بدولة الحماية وسياستها وكانت له مواقف وردود فعل مما أنجزته من تحديث وإصلاح للجهاز الإداري والحكومي وتطور لوسائل النقل والطرقات... الخ، فالاستعمار كان قوة تحديثية وقدوته في حالة المغرب بموجب عقد الحماية... ودخولها جاء بدعوى تحقيق الإصلاح وتقوية الدولة وتحديثها وقد كان موقف دعاة الإصلاح منها موقف يتردد بين القبول والنقد53

وهذا ما لمسناه في تجربة مجلة السلام الإعلامية، فمحمد داود يؤكد في افتتاحية العدد الأول للمجلة " **مبدؤنا وغاياتنا** " أنه يؤمن بضرورة الاستفادة من الاستعمار (بشقيه الفرنسي والإسباني) دون الذوبان في منظومته الفكرية، لكن سرعان ما سيرفع محمد داود من وثيرة النقد54لسلطات الحماية الفرنسية بالخصوص مما يؤدي إلى منع الجريدة من الدخول للمنطقة الخليفية.55

خاتمة:

وأخيرا يمكن القول إن الحركة الإصلاحية الشمالية المغربية: أن اغلب الموضوعات والقضايا التي اشتغلت عليها في فترة الحماية هي وليدة هجمة التحديث الاوروبي واقتحامه للمجتمع المغربي عن طريق الإخضاع العسكري واعتماده التفوق الفكري والتقني الذي كان له وضعه الاعتباري في محاولة طمس معالم الهوية والثقافة المغربيتين فالحركة الإصلاحية جاءت كرد فعل أمام الاحتلال العسكري الذي برر تدخله بإدخال إصلاحات للدولة المحتلة/ المغرب في إطار منطق الحماية_ زورا_ لا في إطار منطق الاستعمار لتستمد بذلك رواد العمل الإصلاحي بشمال المغرب مشروعية النظر في إصلاحاتهم نظرا لضحالة نتائج الإصلاحات التي قادها الاستعمار بالمغرب اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا.

استفادت لحركة الإصلاحية بشمال استفادت بشكل كبير من تعدد مصادر اشتغال لتنزيل مشروعها الإصلاحي والذي اعتمد مبادئ أساسية في إستراتيجية المواجهة لتتحول من حركة ثقافية إصلاحية الى حركة سياسية تروم تحرير البلاد.

الهوامش:

[1]– علي أمليل، الاصلاحية العربية والدولة الوطنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دار التنوير، بيروت،1985

[2]– إبراهيم (أعراب)، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة ص 128

[3]– إبراهيم (أعراب)، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة ص 129

[4]– انظر محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب ص 263–262–261حيث يتضمن مجموعة من عناوين لنصوص ومؤلفات تتضمن مواقف فقهاء هذه المرحلة من المستجدات الوافدة مثل" تقييد في الضمان التجاري المسمى "لاصورانص" لمحمد الحجوي.

[5]– بلمليح (سمير)، الإصلاح ومرادفاته مقاربة نظرية، رهانات الإصلاح بالمغرب، في مجلة مسالك، عدد 6، السنة 2007. ص 5.

[6]– بلقزيز (عبد الإله)، الخطاب الإصلاحي في المغرب، ص 14–15، نقلا عن:

- Encyclopédie de l'Islam, (Islah) Maisonneuve et Larousse, Paris 1978 Tome IV. P 146.

[7]– المرجع السابق، نقلا عن المرجع السابق.

[8]– بلقزيز (عبد الإله)، الخطاب الإصلاحي، ص 14، نقلا عن:

- Encyclopédie de Islam, p ; 147.

[9]– بلقزيز (عبد الإله)، المرجع السابق. ص 15.

[10]– بلمليح (سمير)، الإصلاح ومرادفاته مقاربة نظرية، رهانات الإصلاح بالمغرب، في مجلة مسالك، ص6.

[11]– مجلة المنار مجلة سلفية أنشأها المصلح الشيخ رشيد رضا. وقد وجه الأمير شكيب أرسلان إلى الشيخ رشيد رضا يوم 20 نونبر 1930 حول كيفية إرسال مجلة المنار إلى بنونة، أنظر نضالنا القومي صفحة 154.

[12]– الحركة السلفية والصفات العامة لوجهتها الحاضرة، في مجلة المغرب الجديد، الجزء 4، شتنبر 1935، ص 9.

[13]– أمين (أحمد) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، موسوعة أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، بدون سنة. ص 106–107.

[14]– بنجلون (عبد المجيد)، الإصلاحيون بالشمال وأعمالهم الإصلاحية، مجلة المناهل عدد مزدوج 69–70 سنة 2004 ص 135.

[15]– بنجلون عبد المجيد، الإصلاحيون بالشمال وأعمالهم الإصلاحية المرجع السابق. ص 152.

[16]– أعراب (إبراهيم)، سؤال الإصلاح والهوية. ص 214–215.

[17]– شعرة (عبد الواحد)، الحركة الإصلاحية قيمتها ومداها في نطاق المشروع الاجتماعي المغربي، في مجلة مسالك، العدد 6، السنة 2007، ص 20، نقلا عن:

- Ali (Merad), La dualité réformisme Modernisme dans la pensée musulmane contemporaire (19è 20ès).

[18]– شعرة (عبد الواحد) المرجع السابق الموضع نفسه.

[19]– بنجلون (عبد المجيد)، الوطنيون المغاربة في المنطقة الخليفية وأعمالهم الإصلاحية، ترجمة لطفي بوشنتوف، مجلة المناهل، عدد مزدوج 69–70ص 130–131.

[20]– بنجلون عبد المجيد، الوطنيون المغاربة في المنطقة الخليفية وأعمالهم الإصلاحية، ص 140.

[21]– مجلة السلام، العدد الأول، ص 11.

[22]– ابن عزوز حكيم (محمد)، وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب، ج/1، مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، السلسلة الأولى تطوان، 1980، ص 23.

[23]– ابن عزوز حكيم (محمد)، وثائق الحركة، تعليق رقم 81، ص 95.

[24]– ابن عزوز حكيم (محمد)، المرجع السابق، تعليق رقم 128، ص 113.

[25]– أمين (أحمد)، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 107

[26]– المالكي(امحمد)، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ص 237 بتصرف.

[27]– التعبير للمالكي(امحمد)، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط 1، بيروت 1993، مركز دراسات الوحدة العربي. ص 306.

[28]– المالكي (امحمد)، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط 1، بيروت 1993، مركز دراسات الوحدة العربي، ص 306.

[29]– مبدؤنا وغايتنا، مجلة السلام، العدد 1، ص 11.

[30]– المالكي (امحمد)، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ص 306.

[31]– المالكي (امحمد)، المرجع السابق الموضع نفسه.

[32]– ابن عزوز، وثائق الحركة...ص 15.

[33]– ابن عزوز حكيم (محمد)، وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب، ج/1، ص17.

[34]– للمزيد من التفاصيل في هذا الإطار يمكن الاطلاع على كتاب عبد السلام بنونة أب الحركة الوطنية لمؤلفه عزوز حكيم

[35]– الصفار (حسن)، الفقيه محمد داود...، في ندوة محمد داود لحركة الوطنية في الشمال والمسالة الثقافية، ص 12.

[36]–انظر الناصري المكي، إظهار الحقيقية وعلاج الخليقة مطبعة النهضة تونس 1925.

[37]– اقتبسنا معالم هذه المصادر من إبراهيم (أعراب)، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة مع التصرف، ص 99.

[38]– ابن عزوز، وثائق الحركة...، ج1، ص 15.

[39]– أدرجت مجلة السلام في العدد الأول صورة لهذه البعثـــة وللمزيد عن دور البعثة الطلابية المغربية وأنشطتهـــا بنابلس كتعريفها بالقضية المغربية إثر صدور الظهير البربري (انظر، كتاب المهدي بنونة السنوات الحرجة).

[40]– مجلة السلام، العدد الثاني، 1933، ص 8، وقد أدرجت المجلة أسماء البعثة ضمن صورة معلق عليها وقد ارتدى أعضاء البعثة البذلة الأوربية.

[41]– السعود (عبد العزيز)، مسألة التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال، في ندوة محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية، تطوان 1989، ص 32.

[42]– المنوني(محمد)، مظاهرة يقظة المغرب الحديث، ج/1، الطبعة الأولى 1985، دار المغرب الإسلامي بيروت، ص 358-359.

[43]– عريمان (محمد)، الأستاذ محمد داود في ميدان التربية والتعليم، في ندوة محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية، ص 38.

[44]– بلقزيز (عبد الإله)، الخطاب الإصلاحي في المغرب التكوين والمصادر...، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى 1997، ص 45 بتصرف.

[45]– إبراهيم (أعراب)، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، أفريقيا الشرق 2007ص 102.
وكتاب اظهار الحقيقة وعلاج الخليقة حاول فيه صاحبه المكي الناصري علاج كل مظاهر الشرك والطرقية والبدع التي عمل الاستعمار على إنعاشها.

[46]– يعنى بالخطاب تلك المادة الفكرية التي تمكنت الحركة الوطنية منذ بداية تشكلها، بل وحتى قبل أن تصبح أطر مهيكلة ومنظمة من مراكمتها، سواء في نطاق حديثها عن ذاتها ماضيا وحاضرا أو في مجال كتاباتهـــا عن الاستعمار كظاهرة وفكر وأساليب في التوسع والاستغلال أنظر مالكي (امحمد)، الحركة الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، الطبعة الأولى، بيروت 1993، تعليق 1، ص 215).

[47]– ابن عزوز حكيم (محمد)، أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة، الرباط 1978، ج/1، ص 147.

[48]– مثل تقرير عبد السلام بنونة، تقرير عبد الخالق طريس، مشروع محاربة الأمية، مشروع المعهد الحر، مشروع إصلاح التعليم الديني لمحمد داود.

[49]– أشقرى (عثمان)، الفكر الإصلاحي الوطني والمسألة التعليمية في المغرب خلال الثلث الأول من القرن العشرين، مجلة المشروع، عدد 7-8، سنة 1986، ص 58

[50]– مجلة المغرب الجديد، العدد الرابع، السنة الأولى، شتنبر 1935، ص 17-18.

[51]– خطة المغرب الجديد من العلماء إلى النور، مجلة المغرب الجديد، عدد 1، السنة الأولى، يونيو 1935، صص1-2.

[52]– الطريس (عبد الخالق)، " الشباب وأمل الأمة فيه "، جريدة الحرية السنة 3، عدد 165، دجنبر 1939، نقلا عن حسن الصفار، حزب الإصلاح 1936-1956. دراسة تحليلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، ص 142.

[53]– أعراب (إبراهيم)، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، ص 107.

[54]– انظر ذلك ضمن الملحق رقم 12.

[55]– انظر العدد العاشر للمجلة السلام.